الإعراب وأثره في المعنى

د. فضل الله النور علي – جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا – قسم اللغة العربية

المستلخص:

قضية الإعراب وأثرها في المعنى من القضايا التى شغلت علماء اللغة العربية قديماً وحديثاً، وذهبت آراؤهم فيها مذاهب شتى فمنهم من يرى أهمية الإعراب وأثره في المعنى، ومنهم من لا يرى أهمية له في الجملة؛ وإنما يأتى من باب تزيين الجملة أو تعاقب الحركات لا غير. في هذه الورقة البحثية سأحاول إيراد هذه الآراء سواء أكانت للقدماء أم المحدثين وتفنيد كل رأى بما توافر لدينا من معلومات ثم ترجيح الرأى الغالب في هذه القضية المهمة.

ABSTRACT

Declension and meaning in Arabic

The issue of declension and its relationship with meaning in Arabic has preoccupied the thoughts of ancient and present-day Arabic linguists. They gave various opinions of the significance of declension and its relationship with sentence meaning. While some recognize its importance، others deny it claiming that declension is a matter of decorative alternation of marks. In this paper، the researcher presented the various view points on declension، critically appraised them and took a clear stand on this vital issue.

الكلمات المفتاحية : الإعراب – الأثر – المعنى

المقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أعطى جوامع الكلم وبعد:

الإعراب سمة بارزة من سمات اللغة العربية، بل هو أحد خصائصها التى لا تنفصل عنها ، وتناوله علماء اللغة قديماً وحديثاً مستعرضين جوانبه المختلفة ، وقد حاولت من خلال هذه الورقة البحثية تعريفه بمفهومه الشامل الذى يصل إلى درجة الفصاحة والبيان ، كما تناولت آراء العلماء حوله حيث انقسموا إلى فريقين:

الأول منهما يرى أن الإعراب ليس له أثر في المعنى ويمثله قطرب (محمد بن المستنير) من القدماء وتبعه من المحدثين إبّراهيم أنيس، وقد رد عليهم العلماء ردوداً دحضت ما أتوا به.

أيضاً تناول المستشرقون هذا الموضوع منكرين دور الإعراب، وأتوا بحجج واهية فندها علماء اللغة العربية، كما انبرى لهم بعض المستشرقين ممن بهرتهم اللغة العربية بالرد عليهم.

والثاني يرى أن للإعراب دوراً في المعنى، وهؤلاء هم معظم علماء اللغة العربية كأمثال الزجاجى وابن جنى وابن فارس، وتبعهم إبراهيم مصطفى في العصر الحديث إلا أنه شذ عنهم بقوله إنَّ الفتحة تستخدم كثيراً لأنها الحركة المستحبة، ولم يفهم العلماء الذين درسوا رأيه ما الذي يقصده من قوله الحركة المستحبة؟

وأخيراً ختمت الورقة بالنتائج التى توصلت إليها من خلال استعراض آراء العلماء قديماً وحديثاً حول هذا الموضوع خاتماً ذلك ببعض التوصيات.

مواضيع هذه الورقة البحثية:

١/تعريف مصطلح الإعراب.

٢/حول ظاهرة الإعراب.

٣/آراء العلماء حول الإعراب وأثره في المعنى.

أولاً: تعريف مصطلح الإعراب:

ورد في لسان العرب لابن منظور: ((الإعراب والتعريب معناهما واحد وهو الإبانة يقال: أعرب عنه لسانه وعرَّب أى أبان وأفصح ، وأعرب عن الرجل بيَّن عنه. وقال إنما سمى الإعراب إعراباً لتبيينه وإيضاحه. وقال أعرب بحجته أى أفصح بها، ولم يتق أحداً وقال الإعراب الذي هو النحو إنما هو الإبانة عن المعانى بالألفاظ. وأعرب كلامه إذا لم يلحن في الإعراب)) [١].

كذلك ورد في القاموس المحيط للفيروز آبادى: ((الإعراب الإبانة والإفصاح عن الشئ ... والإعراب أن لا يلحن في الكلام)) [٢].

من خلال هذين التعريفين يتضح للباحث أنَّ الإعراب مرتبط بالفصاحة والإنابة فمتى ما أفصح المتحدث، وأبان عما في مراده فهو معرب خاصة إذا قورن الأمر بمن هم دون العرب في الفصاحة حيث يعتقد العربي دائماً ((أنه قادر على الإفصاح عن نفسه قياساً إلى الأعجم والأعجمى اللذين يعجزان عن ذلك بنظر العرب على الأقل)) [٣].

ثانياً: حول ظاهرة الإعراب:

تعد ظاهرة الإعراب من أخص خصائص اللغة العربية، ونلمح هذا واضحاً في كتاب سيبويه حيث تحدث عن المواقع الإعرابية للكلمة وعلامات الإعراب وعلله يقول: ((إنما ذكرت لك ثمانية مجارلأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل. وليس شئ منها إلا وهو يزول عنه. وبين ما يبنى عليه الحرف بناءً لا يزول عنه تغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التى لكل عامل فيها ضرب من اللفظ في الحرف وذلك الحرف حرف الإعراب)) [٤].

والسبب الذي دعا سيبويه لكل هذا الاهتمام هو أن اللغة العربية لغة تتوخى الإيضاح والإبانة، لذلك كان الإعراب أحد وسائلها للإفصاح عن صلات الكلمات بعضها ببعض فهى تُكوِّن جمل اللغة السليمة التى تعود عليها العربى الفصيح.

وهذه الظاهرة جعلت اللغة العربية تمتاز بها عن غيرها من اللغات بسبب التنظيم الدقيق الذي سادها نتيجة لقواعد الإعراب: ((والتى يتمثل معظمها في أصوات مد قصيرة يلحق أواخر الكلمات لتدل على وظيفة الكلمة في العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة، وهذا النظام لا يوجد له نظير في أية أخت من أخواتها السامية اللهم إلا بعض آثار ضئيلة بدائية في العبرية، والآرامية والحبشية)) (٥).

والحديث عن أهمية الإعراب في اللغة العربية لم يقتصر على سيبويه وحده بل نجد كثيراً من النحويين واللغويين لم يرتابوا في تقرير هذه الحقيقة، وهى أنَّ اللغة العربية لغة معربة، وأنَّ الإعراب عنصر مهم في التركيب اللغوى، ولا يستقيم المعنى بدونه وهذا ما أكده ابن فارس بقوله: ((فأما الإعراب فبه تميز المعانى ويوقف على أغراض المتكلمين وذلك أن قائلاً لو قال: "ما أحسنْ زيدْ" غير معرب أو "ضرب عمر زيد" غير معرب لم يوقف على مراده)) (٦). ويظهر من مثالى ابن فارس أن السامع لا يستطيع استيعاب هذه الجمل، ولا يفهم المقصود منها ولكن لو قيل له "ضرب عمرُ زيداً" لفهم مَنْ الضارب ومن المضروب والفضل في ذلك يعود إلى الإعراب.

ومن خلال هذه الشواهد تظهر للباحث أهمية الإعراب في اللغة العربية لأنه يساعد على إزالة الغموض واللبس اللذين يمكن أن يحدثا في اللغة لولا الإعراب وهو بالإضافة إلى ذلك يعد مظهراً من مظاهر الدقة والجمال تتميز بهما اللغة العربية. ولابن قتيبة حديث يدعم هذه الحقيقة يقول فيه: ((ولها (العرب) الإعراب الذي جعله الله وشياً لكّلامها وحلية لنظامها وفارقاً في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يُفرق بينهما إذا تساوت حالاتهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب، ولو أنَّ قائلاً قال: " هذا قاتلٌ أخى" بالتنوين وقال آخر:" هذا قاتلُ أخى" بالإضافة يدل التنوين على أنه لم يقتله ودل حذف التنوين على أنه قد قتله)) (٧). وهنا لولا الإعراب لاختل الأمر لأنَّ من يريد أن يحكم في هذه القضية يختلط عليه أمرها ولكنَّ الإعراب أبان عنها دون لبس أو غموض.

فحفظ اللغة العربية وحفظ الناطقين بها من الزلل كل ذلك جعل العلماء خاصة علماء القرن الثاني الهجرى يصبون كل اهتمامهم على تقويم اللسان عن طريق الحركة الإعرابية حيث استخدموا القواعد التى تضمن ذلك، واستنبطوا القوانين التى تحقق لغير العرب إمكان النطق على سمت العرب، وفي نفس الوقت الحفاظ على هذه اللغة من الضياع نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب التى دخلت في الإسلام.

ولكن رغم هذه الأهمية للإعراب التى اتضحت لنا من خلال هذا العرض إلا أنَّ بعض العماء قدحوا في هذه القضية وطعنوا في دور الإعراب في الجملة العربية وسنحاول من خلال هذه الورقة إبراز آرائهم والرد عليها.

ثالثاَ: آراء العلماء حول الإعراب:

انقسم العلماء تجاه هذه القضية إلى فريقين:

الفريق الأول: ينكر هذا الفريق أى دور للإعراب في المعنى، وإنما وجد في اللغة لعلل أخرى وهذا الرأى من القدماء يمثله قطرب (محمد بن المستنير) ومن المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس وبعض المستشرقين.

١/رأى قطرب (محمد بن المستنير)

يرى قطرب أن العرب لم تعرب كلامها للدلالة على المعانى والفرق بينها لأن هناك أسماء تأتى متفقة في الإعراب ومختلفة المعانى كما أنَّ هناك أسماء مختلفة الإعراب، ومتفقة المعانى وذلك بقوله: (نجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب مختلفة المعانى وأسماء مختلفة الإعراب متفقة المعانى، فما اتفق إعرابه واختلف معناه قولك: إنَّ زيداً أخوك، ولعل زيداً أخوك، وكأنَّ زيداً أخوك اتفق إعرابه واختلف معناه، ومما اختلف إعرابه، واتفق معناه قولك:ما زيد قائماً وما زيد قائم اختلف إعرابه، واتفق معناه ...)) [٨].

وله رأى آخر يرى فيه أنَّ هذه الحركات جيء بها للسرعة في الكلام وللتخلص من التقاء الساكنين عند اتصال الكلام، وليس لها دور آخر في الجملة فيقول: ((وإنما أعربت العرب كلامها لأنَّ الاسم في حالة الوقف يلزمه السكون للوقف فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف، والوصل وكانوا يبطئون عند الإدراج فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ليعتدل الكلام ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة، ولا في حشو بيت ولا بين أربعة أحرف متحركة لأنَّهم في اجتماع الساكنيين يبطئون وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة في كلامهم فجعلوا الحركة عقب الإسكان)) [٩].

فما قاله قطرب يحتاج إلى تعليق، لأنَّ الإعراب إذا كان هدفه تعاقب الحركات لأتى كل متحدث بالحركة التى تروق له، وهذا فيه فساد للغة وخروج على أوضاع العرب حيث تنعدم الضوابط بين المتحدثين. وأن تعاقب هذه الحركات لا يحدث نتيجة اتفاق بين أبناء اللغة العربية وإنَّما كل متكلم يعاقب الحركات حسب رغبته فربما ينصب هذا الفاعل بينما يجره الآخر، وهذا يعمل على وأد اللغة العربية لأنَّ الأجيال الجديدة لا تجد قاعدة معينة تستطيع من خلالها فهم اللغة، وتوظيفها في حديثها مع بعضها البعض.

٢/رأى الدكتور إبراهيم أنيس:

سار الدكتور إبراهيم أنيس في نفس الطريق الذي سار عليه (قطرب) بل اقتفى أثره كأنَّ يضع الحافر على الحافر وذلك بقوله: ((يظهر – الله أعلم – أنَّ تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل في الكلام شعراً، أو نثراً فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون كما يظهر أنَّ الأصل في كل الكلمات أن تنتهى بهذا السكون وأنَّ المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل)) [١٠].

وهنا يرى الدكتور إبراهيم أنيس أنَّ الحركات الإعرابية ليست دلالة على الفاعلية أو المفعولية أو غيرهما وإنَّما هذه الحركات لا تعدو أنَّ تكون حركات يحتاج إليها لوصل الكلمات بعضها ببعض. فهى إذاً تأتى للتخلص من التقاء الساكنين عند وصل الكلام. أما الفاعلية والمفعولية وغيرهما فإنما يستفاد من موقع كل من الفاعل والمفعول أى رتبتها في الجملة.

أما اختلاف الحركات فهو يخضع عنده لعاملين:

الأول: إيثار بعض الحروف لحركة معينة كإيثار حروف الحلق للفتحة سأل يسأل.

الثانى: الميل إلى تجانس الحركات المتجاورة(١١).

ونلاحظ مما سبق أنَّ الدكتور إبراهيم أنيس يحاول أنَّ يطبق هذا الكلام على الشعر، والنثر لذلك يرى أنَّ الكلمات تنطق ساكنة، ولكن في حالة الوصل يأتى المتكلم بحركة تناسب الحرف الذي يراد تحريكه أو التى تتجانس، وتنسجم مع الحركات الأخرى.

وقد فند الدكتور محمد عبدالخالق عضيمة هذا الرأى موضحاً أن الدكتور إبراهيم أنيس جعل حركات أواخر الكلمات للانسجام، ولكنَّه لم يبين ضوابط هذا الانسجام ولاحدوده وإذا سئل عنه لم تسمع منه إلا همهمة وغمغمة لا تتضح فتارة الانسجام عنده تحريك الحرف الأخير بحركة ما قبله، وتارة يحرك الحرف الأخير بحركة ما بعده(١٢).

كما رد الدكتور مهدى المخزومى على رأى الدكتور إبراهيم أنيس بأننا لا نستطيع تفسير اختلاف اللهجات العربية في الوقف فمثلاً لهجة أزد السراة إذا وقفوا على المرفوع أطالوا ضمته كأنَّها واو وإذا وقفوا على المكسور أطالوا كسرته كأنَّها ياء فيقول: ((فإذا لم تكن حركات أعلاماً لمعان قصد إليها المتكلم بل لم تعدُ أنَّ تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها مع بعض فكيف يفسر الوقف على: خالد في لغة من ينتظر (وهى لغة أزد السراة)؟ ولماذا كانت الدال مرفوعة، ومنصوبة، ومخفوضة في الجمل الثلاث؟ ولماذا لا تكسر لتنسجم حركة الدال مع حركة اللام قبلها؟ ... وعليه فإنَّ القول بأنَّ الحركات إنَّما هى سد للحاجة إلى وصل الكلمات بعضها ببعض، وأنها ليست أعلاماً للمعانى التى قصد إليها المتكلم قول لم يحالفه التوفيق(١٣).

من خلال هذه الردود يتضح للباحث أنَّ ما قاله قطرب وتبعه فيه إبراهيم أنيس قول غير موفق، ولا ينسجم مع اللغة العربية التى ميزت بالإعراب بين الجمل المختلفة من حيث الدلالة كما أتاحت فرصاً كبيرة للمتحدث ليبدل مواقع الكلمات في الجملة عن طريق التقديم والتأخير دون أنْ يختل المعنى ودون أنْ يحدث لبس.

٣/ رأى المستشرقين

أيضاً واجه الإعراب نقداً من المستشرقين حيث زعم بعضهم أنَّ ظاهرة الإعراب لم تكن عنصراً مراعاً تطبيقه إلا في لغة الآداب: شعرها وخطابتها ونثرها. أما لهجات الحديث فكانت منذ أقدم عصورها غير معربة، وإنَّما هى خالية من مظاهر الإعراب، ويستندون في ذلك على شبة سنحاول من خلال هذه الورقة إيرادها ثم دحضها بأدلة كافية لردها وهذه الشبهة تتمثل في:

دليل منطقى عقلى أتى به المستشرق اليهودى كوهين وهو أن هذه القواعد المتشعبة والدقيقة من الصعب جداً مراعاتها في الحديث، وربما يتعذر تطبيقها؛ لأنَّها تتطلب قدراً كبيراً من الانتباه، وملاحظة عناصر الجملة، وعلاقتها بعضها ببعض ولا يمكن مراعاة ذلك في لهجات الحديث؛ لأنَّ لهجات الحديث تميل إلى السهولة، وتتوخى اليسر وتؤثر الإيجاز(١٤).

وفي رأي هذا الدليل الذي ساقه كوهين يفتقر إلى الصحة، والدقة لأنَّ هذه القواعد المتشبعة تعد صعبة بالنسبة لنا، ولغيرنا ولكنها لا تعد صعبة بالنسبة للعرب الخُلَص الذين كانوا يتكلمون اللغة سليقة، وشتان بين من يتكلم اللغة سليقة، وبين من يتكلمها بالتعلم كما فاته أنَّ اللغة العربية المعربة كانت لغة العرب في الجاهلية ولغة القرآن الكريم التى عمت العرب جميعاً.

كما يأتى قول المستشرق الألمانى يوهان فك رداً على قول كوهين حيث ذكر أن حركات الإعراب صفة من صفات العربية، وسمة من أقدم سماتها اللغوية(١٥).

أما علاقة القرآن بهذا الإعراب فبالرغم من الحقيقة الجلية، والتى اعترف بها الناس جميعاً بما لا يقبل أى شك وهى أن القرآن نزل بلسان عربى مبين إلا أن بعض المستشرقين الذين امتلأت قلوبهم حقداً على اللغة، والقرآن يقولون بخلاف هذه الحقيقة وذلك من خلال قول فولرز: ((إن القرآن نزل أول الأمر بلهجة مكة المجردة من ظاهرة الإعراب ثم نقحه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس حتى أضحى يقرأ بهذا البيان العذب الصافى وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال)) (١٦).

ونلاحظ هنا الخطأ الذي وقع فيه هذا المستشرق حيث قال عن لغة قريش إنها (لهجة مكة) ولعله كان يقصد لغة قريش أفصح قبائل العرب، ولعله يقصد بأنها خالية من الإعراب، وأنَّ علم النحو لم يكن موجوداً عند نزول القرآن وهذا صحيح أن علم النحو وضع بعد نزول القرآن، وبسببه وللحفاظ عليه ولكن هناك فرقاً بين "الإعراب: و "النحو" وهذا مالم يدركه هذا المستشرق حيث خلط بين المصطليحين بينما الإعراب هو ضبط الكلام بحركاته ضبطاً يميز بين معانى الكلم حتى ولو لم تكن هناك حركات إعرابية أو ناب عنها الحرف. وهذا الخلط وقع فيه كثير من المستشرقين، لأنَّهم فهموا ألفاظها من ظاهر معناها الحرفى دون التعمق في مدلولها وهذا سر من أسرار اللغة العربية امتازت به على سواها من اللغات.

والآن نورد بعض الأدلة من المأثورات الكريمة (القرآن والسنة) تدحض كل قول رأى صاحبه عدم وجود دور للإعراب في المعنى: أولاً: ورد أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم ذكر كلمة الإعراب لحث الناس على التزامه عند تلاوة القرآن ويبين لهم مزاياه ومن ذلك: ((ومن قرأه – القرآن – معرباً فإنْ أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة)).

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:"من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد" وعن عبدالله بن مسعود "أعربوا القرآن".

وقد كتب كاتب لأبى موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب " من أبو موسى" فكتب إليه عمر رضى الله عنه:"سلام الله عليك فاضرب كاتبك سوطاً واحداً وأخر عطاءه سنة".

ومعلوم أن الإعراب بمعناه الاصطلاحى لم يكن قد ظهر أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه)) (١٧).

وظاهر من هذه الأحاديث التى ربطت بين الإعراب واللغة العربية أنَّ الإعراب شامل في اللغة، وهذا يقودنا إلى الحقيقة التى ذكرناها سابقاً، وهى أنَّ الإعراب معناه أكبر من مجرد الدلالة على النحو وإنما يعنى فصاحة اللغة حيث فطن العلماء في ذلك الوقت إلى الحركات الإعرابية، ودورها في أداء المعنى ونقدهم لمن يحيد عنها، وذلك قبل أنْ يضع النحاة قواعدهم.

ثانيا: القرآن لا يفهم إلا إذا قرئ معرباً:

الكتابة العادية يمكن أنْ تقرأ بدون ضبط أو إعراب أما القرآن الكريم فأمره مختلف وقراءته ((بها حدود ثابتة تحتم قراءته مضبوطة معربة كما تحتم تدبر معناه مع القراءة حتى لا تضيع مثوبة القارئ أو يقترف إثماً ...ومن الأدلة الدامغة على أن القرآن لا يقرأ إلا مضبوطة ألفاظه منذ نزوله إلى اليوم وإلى ماشاء الله قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء) فـاطر(٢٩) (أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) التوبة (٣) و (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ) البقرة (١٢٤).

وهذا هو الفرق بين القرآن وغيره من العلوم الأخرى لأنَّه وحى منزل من عند الله لا يقرأ إلا بالطريقة التى أنزله بها، ولا يجوز لكائن من كان أنْ يغير فيه سواء أكان من حيث القرءة أم من حيث الكلمات.

وهذا الرد جعل بعض المستشرقين أمثال جورج سارتون الذي استهوته اللغة العربية الفصحى أنْ يرد على زعم فولزر بقوله: ((إن الوحى نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم باللغة العربية، وهكذا كانت العربية لغة الله ولغة الوحى وأهل الجنة)) (19).

ثالثاً: العرب الأولون فصحاء بالسليقة ويستشهد بلغتهم:

كان العرب خلصاً في زمن الجاهلية، وما قبل الإسلام، لذلك كانوا ينطقون الكلام معرباً مضبوطاً بطبيعتهم من غير تكلف أو تعليم له حيث لم تتأثر لغتهم بلغات أخرى تؤثر في هذه السليقة إلا فيما بعد وكان الصحابة رضوان الله عليهم كذلك يقرأون القرآن مع ضبطه كما تلقوه من فيَّ الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا ما جعل فصيحهم الوليد بن المغيرة يعترف بفصاحة القرآن، وتفوقه في ذلك على لغتهم الفصيحة.

رابعاً: اختلاف اللهجات في إقراء القرآن:

بعد نزول القرآن ((جاءت القبائل العربية من كل حَدْب وصوب تريد قراءة القرآن ودراسته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يقر كل قبيلة – على قراءتها بلسانها، لأنَّه يعلم مدى الصعوبة الشديدة في أنْ نزول القبيلة عن لسانها وتغير من نطقها الذي درج عليه أبناؤها أطفالاً وشباباً وكهولاً حتى قال صلى الله عليه وسلم حديثه المشهور: ((أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا منها ما شئتم)) (20).

وفي واقع الأمر كل هذه القبائل عربية، ولكن تنوعت لغتها نتيجة بحثهم عن المرعى، والكلأ وتجوالهم في بقاع الجزيرة الشاسعة، وعلى حسب الرأى الراجح في هذا الحديث الذي روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ((أنَّ المراد بالحرف اللغة قال أبوعبيد وأبو العباس نزل على سبع لغات من لغات العرب وروى الأزهرى عن أبى العباس أنَّه سُئلَ عن قوله نزل القرآن، على سبعة أحرف فقال ماهى إلا اللغات)) [21].

وهذه الرخصة انتهت بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز القراءة بها بعد لأنَّ هذه الرخصة أتت نتيجة لدخول القبائل المختلفة في الإسلام مع اختلاف لغاتهم، وصعوبة ترك ما تعودوا عليه، ولكن بعد نسخ سيدنا عثمان رضى الله عنه للمصاحف وتوزيعها تم نسخ ما لا يسمح به رسم المصحف بل هذا الأمر تم قبل ذلك عندما ((سمع عمر بن الخطاب رجلاً يقرأ: عتَّى حين يريد حتى حين فقال: من أقرأك هذا؟ قال: عبدالله بن مسعود قال: فكتب إلى عبدالله: إنَّ القرآن نزل بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل...)) [٢٢].

الفريق الثانى: يرى أنَّ للإعراب دوراً في المعنى:

يعترف هذا الفريق بوجود الإعراب في اللغة العربية وأنَّ له أثراً في تأدية المعنى، وكشفه، وإزالة اللبس، والغموض في معظم الحالات كما يرون أنَّ للإعراب أيضاً ميزة كبيرة تتمثل في إعطاء الكلمة حرية في التركيب من حيث التقديم والتأخير دون أنْ تفقد الكلمة وظيفتها. وهذه ميزة تميزت بها اللغة العربية على غيرها أنها لغة معربة بينما اللغات غير المعربة تلتزم الكلمة فيها رتبة واحدة وبذلك تفقد قسطاً كبيراً من المرونة التى يمكن أنْ يتيحها لها وجود الإعراب.

والقول بأنَّ حركات الإعراب دوال على المعانى هو قول أكثر النحويين فالزجاجى يقول:((إنَّ الأسماء لما كانت تعتورها المعانى، وتكون فاعلة، ومفعولة ومضافة، ومضافاً إليها ولم تكن في صورها وأبنيتها دلالة على هذه المعانى بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب فيها تبنئ عن هذه المعانى ...)) [23].

فهو يرى أنَّ هذه الأسماء تأتى فاعلة ومفعولة وغيرها وليس فيها ما يدل عليها ، أو يميز بينها إلا الإعراب حيث من خلاله نتعرف عليها كما أنَّ هذا الإعراب يتيح لنا فرصة التقديم والتأخير عند الحاجة مما يعد اتساعاً في اللغة.

أيضاً يرى ابن جنى أنَّ الإعراب يبين عن المعانى بالألفاظ دون أنْ يحدث لبس حيث يقول((الإعراب هو الإنابة عن المعانى بالألفاظ ألا ترى أنَّك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه وشكر سعيداً أبوه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولوكان الكلام شَرْجاً (نوعاً) واحداً لا ستبهم أحدهما من صاحبه)) [٢٤].

فالتقديم والتأخير من أهم الميزات التى أتاحها الإعراب للغة العربية، ولولاه لما استطاع الدارس التمييز بين الفاعل والمفعول.

ويذكر الزجاجى جانباً آخر من جوانب هذه القضية موضحاُ العلة من رفع الفاعل ونصب المفعول وذلك بقوله ((إنما فُعل ذلك للفرق بينهما ثم سأل نفسه فقال: فإن قيل لماذا لم يعكس الأمر؟ أجاب أنَّ ذلك أحزم لهم لأنَّ

الفعل له فاعل واحد، وعدة مفاعيل، وهذا ما دعاهم إلى رفع الفاعل لقلته حتى يقل في كلامهم ما يستثقلون ونصب المفعول ليكثر في كلامهم ما يستخفون)) [25].

ونلاحظ من خلال هذا العرض دلالة الإعراب على المعنى، ودوره الكبير في توضيح الجملة، ولولاه لما عرفنا الفاعل من المفعول، وسيراً في هذا الاتجاه تُروَى قصة تدل على أهمية هذا الإعراب حيث ((رُوى أنَّ ابنه أبي الأسود سألته: ما أحسنُ السماء با أبت؟ برفع (أحسن) وجر (السماء) فقال نجومها فقالت: لا أريد هذا إنَّما أتعجب من حسنها فقال: ما هكذا تقولين قولى؛ ما أحسن السماء بالنصب)) [26].

كذلك يرى ابن فارس أنَّ الإعراب تميز به المعانى ويزيل الإبهام الذي يمكن أنْ يحدث للمتكلم خاصة في الجملة المتشابة في ألفاظها حيث يقول: ((فأمَّا الإعراب فيه تميز المعانى، ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أنَّ قائلاً لو قال:"ما أحسن زيد" غير معرب "ضرب عمر وزيد" غير معرب لم يوقف على مراده فإذا قال: ماأحسن زيداً أو ما أحسن زيد أو ما أحسنُ زيدٍ أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى)) [27].

وهذه نظرة صائبة لأننا عن طريق الإعراب نحصل على ثلاث جمل تعجبية ومنفية واستفهامية وكل واحدة لها معناها الخاص الذي وصح عن طريق الإعراب.

أيضاً من المحدثين الأستاذ إبراهيم مصطفى الذي يرى أن للحركات الإعرابية دلالة على المعنى فكما أنَّ الحركات البنائية تؤدى إلى اختلاف المعنى كذلك الحركات الإعربية ولكنه يحدد لكل حركة معنى معيناً تدل عليه لأنَّه ((يدعى أنَّ النحاة العرب جعلوا الإعراب حكماً لفظياً خالصاً يتبع لفظ العامل وأثره ولم يروا في علاماته إشارة إلى معنى ولا أثراً في تصوير مفهوم، أو إلقاء ظل على صورته)) [28].

وبهذا المفهوم لا ينكر إبراهيم مصطفى أنَّ أواخر الكلمات المعربة تختلف في اللغة العربية باختلاف المعنى، ولكنه ينكر أنْ يتحول العامل من معنى مفهوم إلى لفظ محدود يقيد ذلك المعنى بلوازمه اللفظية لأنَّ هذا التقييد يراه أفسد على النحاة ترتيبهم وتأليفهّم، وهذا الرأى وجيه أمام إفراط النحاة في التقديرات التى يوجبها نقل السبب من معنى ملحوظ إلى لفظ محدود [29].

أما المعنى الذي يحدده إبراهيم مصطفى لكل حركة إعرابية فهو يرى أنَّ الضمة علم الإسناد، والكسره علم الإضافة، وأما الفتحة فيرى أنَّها لا تدل على معنى، ولكنها الحركة الخفيفة المستحبة التى يلجأ إليها في غير الإسناد والإضافة وذلك لأنَّ الفتحة حفيفة خاصة إذا كانت في وسط اللفظ، ودرج الكلام وشواهده على ذلك فرار العرب في بعض المواضع من الإسكان إلى الفتح مثل قولهم في جمع فَتْرة وحَسْرة: فَتَرات وحَسَرات فالعين ساكنة في المفرد، ولكنهم فتحوها في الجمع بالرغم من أن حقها البقاء على التسكين لأنَّ جمع المؤنث يسلم بناء المفرد فيه [30].

ويرى العقاد أن هذا الكلام يعد من خطأ القياس عند المعترضين على طرائق النحاة في التقدير ولأنَّ السكون هنا لا يستثقل وإنَّما الذي يستثقل هو الانتقال من الحركة إلى السكون ثم من السكون إلى الحركة ولا فرق في

ذلك بين الفتحة والضمة لأنهم يقولون: الحُجُرات والغُرُفات والقُبُلات بدلاً من تسكين العين لأنَّ الاستمرار في حركة واحدة أيسر من الانتقال بين الحركات المختلفة[31].

كما اعتبر الدكتور إبراهيم السامرائى كلام إبراهيم مصطفى في الفتحة غير سليم، وغريب لأنَّه لا يستند إلى سند علمي خاصة وأنَّ الفتحة دلت على النصب في كثير من اللغات السامية ولا يوجد سبب لهذا الاستحباب الذي ذكره [32].

وهذا الرأى الذي قاله إبراهيم مصطفى وحاول فيه الآتيان بشيء جديد مردود لأنَّ النحاة نصوا صراحة على أنَّ الضمة علم الفاعلية والفتحة علم المفعولية والكسرة علم الإضافة ونلمس ذلك من خلال قول ابن مالك [٣٣].

ورفعُ مفعولٍ به لا يُلْبَّس مع نصب فاعل رووا فلا تقس

فمعنى البيت أنَّ الرفع علامة الفاعلية، والنصب علامة المفعولية وإنْ وضح أحدهما بغير العلامة يجوز إعطاء علامة كل واحد منهما إلى الآخر كما في: خرق الثوب المسمار.

وإبراهيم مصطفى في رأيه هذا لم يأت بجديد وإنَّما أخذ هذا القول من كتاب المفصل للزمخشرى حيث يقول الزمخشرى :((فالرفع علم الفاعلية، والفاعل واحد ليس إلا وأما المبتدأ وخبره وخبر إنَّ وأخواتها، ولا التى لنفى الجنس، واسم ما ولا المشبهتين بليس فملحقات الفاعل على سبيل التشبيه، والتقريب وكذلك النصب على المفعولية والمفعول خمسة أضرب وبقية المنصوبات ملحقات به، والجر علم الإضافة [34].

وخلاصة الأمر في رأى إبراهيم مصطفى أنَّه لم يأت بشئ جديد وإنَّما كل ما فعله هو عرضه لرأى الزمخشرى، ولكنه حاول مخالفة الزمخشرى في رأيه عند الفتحة بأنَّها الحركة المستحبة وحتى هذا القول فنده العلماء، واعتبروه يخالف الحقيقة لأنَّه لا يستند إلى سند علمي كما أنَّ الفتحة كعلامة للنصب وردت في كثير من اللغات السامية لذلك لم يكن لمحاولته أثر كبير في تجديد النحو.

وفي ختام عرضى لهذه القضية التى تتعلق بالإعراب ودوره في اللغة العربية يتضح لى أنَّ هذا المصطلح ورد في مصادر اللغة المختلفة، وبمعناه الشامل الذي يدل على الفصاحة والبيان ومن يقول بخلاف ذلك يعد متحاملاً على اللغة العربية دون حق خاصة وأنَّ كثيراً من خصائص الغة العربية يرتبط بهذا المفهوم الشامل الذي أكسبها مرونة جعلتها تقدم وتؤخر في مفردات الجملة دون أنْ يلتبس الأمر على القارئ أو السامع.

والآن نعرض بعض النماذج من مصادر اللغة العربية نوضح من خلالها دور الإعراب في المعنى، والإنابة والتوضيح:

أولاً: القرآن الكريم

وردت آيات في القرآن الكريم تشير إلى مشتقات هذا المصطلح كما في قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) **يوسف**[2].

(لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) **النحل** [103].

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) **الشورى** [7].

هذه الآيات تصف القرآن بأنَّه عربى، وتدعو إلى معرفة ذلك بصورة جلية وكونه عربياً يدل على ارتباطه بالفصاحة التى لا تشوبها شائبة، وعلى من يقرأه التركيز على إبانته حتى لا يفقد ثواب إعراب القرآن.

كما أنَّ هناك آيات يختلف المعنى فيها إذا اختلف الإعراب بسبب القراءات أو غيره نورد نماذج منها: [35].

١/ قال تعالى: (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) **البقرة** [132].

فالعطف هنا يوقع القارئ في حيرة لا ينقذه منها إلا الإعراب فهو لا يدرى أيعقوب معطوف على إبراهيم؟ فيكون المعنى ووصى بها يعقوب بنيه أسوة بإبراهيم أم معطوف على بنيه فيكون المعنى ووصى بها إبراهيم بنيه ووصى بها يعقوب في جملة بنيه أيضاً.

٢/ قال تعالى: (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا) **الأنعام** [27].

فقرئ ولا نكذبُ بالرفع على معنى ياليتنا نرد ويا ليتنا لا نكذب وقرئ ولانكذبَ بالنصب على المعنى ليتنا يكون لنا عود إلى الحياة يصاحبه التصديق والإيمان.

ونكتفى بهذين الشاهدين اللذين اتضح لنا من خلالهما دور الإعراب في توجيه المعنى.

ثانياً: الحديث النبوى الشريف:

طالما حديثنا عن الإعراب، ومعانيه، ودلالاته نورد بعض النماذج التى قالها الرسول صلى الله عليه وسلم يحث فيها على اللغة الفصيحة والتى بدورها ستقود إلى فصاحة في تلاوة القرآن الكريم [36].

١/ " أعربو القرآن والتمسوا غرائبه"

٢/ "من قرأ القرآن بإعراب فله أجر شهيد"

٣/ "أعربو الكلام كى تعربوا القرآن:

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان شديد الحرص على إعراب القرآن بالرغم من أنَّ الإعراب بمعناه النحوى المحدود لم يكن معروفاً في عهده، وإنَّما قصده الإفصاح والإبانة.

ثالثاً: أقوال العرب:

١/ قال الزركشى: يستحب قراءته (أى القرآن) بالتفخيم، والإعراب والمقصود بالإعراب هنا الفصاحة والبيان.

٢/ قال مالك بن أنس: الإعراب حِلْيُ الكلام فلا تمنعوا ألسنتكم حليها [37].

كما يتضح دور الإعراب في توجيه مفردات الجملة نحو المعنى المطلوب فمثلاً لو قائلاً قال: "فلان متهم بقتلى السائق وابنه" لا يعرف علام يعطف ابنه: أعلى فلان فيكون قاتلاً أم على السائق فيكون مقتولاً.

فإذا عطف على فلان يكون مرفوعاً وإذا عطف على السائق يكون مجروراً وهذا يدل على أهمية الإعراب في الإبانة عن المعانى المختلفة في العبارة الواحدة ولولاه لما قطع الناس بوضع (ابنه) من حيث المعنى والدلالة.

ويمكن أن يقال:((كانت الشمس طالعة والمطر منهمر)) فلا يعلم القارئ هل الواو عاطفة؟ فيكون المراد وكان المطر منهمراً قاصداً الحديث عن طلوع الشمس وانهمار المطر، أو هى حالية فيكون المراد الحديث عن طلوع الشمس في حال انهمار المطر [38].

وفي ختام هذه الورقة نصل إلى النتائج الآتية:

١/ هناك علماء أنكروا دور الإعراب في المعنى، وهم من العرب والمستشرقين وقد فندنا ما أتوا به من حجج بالأدلة المقنعة من خلال عرضنا لهذا الموضوع.

٢/ معظم العلماء اعترفوا بالإعراب، ودوره في المعنى، وهم غالبية علماء اللغة العربية، وقد دعمنا رأيهم بأدلة من القرآن الكريم وكلام العرب اتضح من خلالها صحة ما ذهبوا إليه. وهذا يدل على أنَّ اللغة العربية قوامها الفصاحة حيث يشكل الإعراب عمودها الصلب الذي لا تصح بدونه.

٣/ أن القران الكريم أتى معرباً، والرسول صلى الله عليه وسلم تلقاه على هذا النحو من ربِّه ثم تلقاه أصحابه من فيه معرباً، وهناك أيات فيه لا يتضح معناها إلا من خلال الإعراب وهذا يدل على قدم المصطلح، وذلك قبل أن يضع علماء النحو قواعد النحو.

٤/ المقصود بهذا المصطلح (الإعراب) الإبانة والتوضيح والفصاحة، لذلك لا يشكل هذا المصطلح قريناً أو نداً لمصطلح البناء وإنما معناه أشمل وأكبر من ذلك.

٥/ هناك من ينادى بإلغاء الإعراب من اللغة العربية لصعوبته حسب زعمهم فإذا سلمنا بقولهم فأين نذهب بهذا التراث الضخم المتمثل في القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، ومأثور كلام العرب وهو معرب؟

٦/ نحن نتوخى الحذر، والحيطة في حياتنا اليومية فلماذا لا نطبق ذلك على اللغة، ومعرفتها وهى تمثل تراثنا، وكياننا، ووحدتنا وشرفها الله سبحانه وتعالى بإنزال كتابه بها؟

التوصيات:

الإعراب موضوع واسع ومتشعب ويصلح لدراسات أوسع تتناول جوانبه المختلفة وذلك من خلال دراسة:

١/ دوره الشكلى والدلالى في الجملة العربية.

٢/ دوره في وظيفة التفاهم وغيرها من جوانبه المختلفة.

المراجع :

١/ ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب دار صادر بيروت مادة (عرب).

٢/ الفيروزآبادى ، مجد الدين محمد بن يعقوب (١٩٩٥) القاموس المحيط ضبط الشيخ محمد البقاعى دار الفكر بيروت مادة (عرب).

٣/ علوش، د. جميل (١٩٩٧) الإعراب والبناء دراسة في نظرية النحو العربى ط١ المؤسسة الجامعية بيروت ١٧-٢٥٥.

٤/ سيبوية، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٩٦٦) الكتاب ج١ تحقيق هارون ، عبدالسلام دار القلم بيروت ١٣.

٥/ وافى ، د. على عبدالواحد (ندون تاريخ) في فقه اللغة ط٨ دار نهضة مصر ٢١٠.

٦/ ابن فارس، أو الحسن أحمد بن فارس (١٩٧٥) الصاحبى في فقه اللغة تحقيق السيد أحمد صقر مطبعة الحلبى ٣١٠.

٧/ ابن قتيبة، محمد بن عبدالله بن مسلم (١٩٧٣) تأويل مشكل القرآن ط٢ دار التراث القاهرة ص ١٤.

٨/ الزجاجى ، عبدالرحمن بن أسحاق (١٩٧٩) الإيضاح في علل النحو تحقيق المبارك ، د. مازن ط٣ دار النفائس بيروت ٩١-١٥٩.

٩/ المرجع السابق ص ٧٠-١٥٩.

١٠/أنيس ، د. إبراهيم (١٩٥١) من أسرار العربية ط٣ مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٨.

١١/انظر: الفكى د. عثمان (١٩٩٦) محاضرات في أمهات المصادر ألقيت لطلبة الماجستير باليمن.

١٢/أنظر: هلال ، د. عبدالغفار حامد (١٩٨٩)علم اللغة بين القديم والحديث ط٣ مطبعة الجيلاوى ٢٥١-٤٠٦.

١٣/المخزومى، د. مهدى (١٩٥٨) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو مطبعة مصطفى الحلبى ٢٥١.

١٤/انظر: فقة اللغة لوافى (سابق) ٢١١.

وكذلك:السامرائى ، د. إبراهيم (١٩٧٨) فقه اللغة المقارن ط٢ دار العلم بيروت ١٢٣.

١٥/انظر: فقة اللغة المقارن للسامرائى (سابق) ١٢٤.

١٦/الصالح، د. صبحى (١٩٦٢) دراسات في فقه اللغة ط٢ المكتبة الأهلية بيروت ١٢٣.

١٧/عبدالتواب ، د. رمضان (١٩٨٧) فصول في فقه العربية ط٣ مكتبة الخانجى القاهرة ٣٨٧-٤٥٦.

وكذلك: السيد، د. فضل ربه (بدون تاريخ) فقه اللغة مطابع الثقافة بيروت ص ٧٧.

١٨/فقه اللغة د. فضل ربه السيد(سابق) ص ٩٢.

١٩/السابق ٩٥.

٢٠/السابق ٩٤.

٢١/عبدالرحيم، د. عبدالجيلي (١٩٨١) لغة القرآن الكريم ط١ مكتبة الرسالة الأردن ٩٣-٦٢٢.

٢٢/فصول في فقه اللغة د. رمضان (سابق) ٣٧٩-٤٥٦.

٢٣/الإيضاح في علل النحو للزجاجى (سابق) ص ٩٦-١٥٩.

٢٤/ابن جنى، أبو الفتح عثمان (٢٠٠١) الخصائص ج١ تحقيق هنداوى، د. عبدالحميد ط١ دار الكتب العلمية بيروت ٣٦-٥٣٢.

٢٥/المرجع السابق ج١ ص ٥٠.

٢٦/علم اللغة د. عبد الغفار حامد (سابق) ٢٦٢-٤٠٦.

٢٧/الصاحبى في فق اللغة ابن فارس (سابق) ص ١٩٠.

٢٨/نقلاً عن علم اللغة د. عبدالغفار حامد (سابق) ٢٧٢-٤٠٦.

٢٩/انظر: العقاد، عباس محمود (١٩٨٨) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ط١ دار المعارف مصـــر ٣٠-١٥٦.

وكذاك الفكى، د. مصطفى (١٩٩٦) محاضرات في أصول النحو لطلاب الماجستير باليمن.

٣٠/انظر: أشتات مجتمعات للعقاد (سابق) ٣٢-١٥٦ وكذلك الفكى د. عثمان (١٩٩٦) محاضرات في أمهات المصادر لطلاب الماجستير باليمن.

٣١/انظر: أشتات مجتمعات للعقاد (سابق) ٣٤-١٥٦.

٣٢/فقه اللغة المقارن للسامرائى (سابق) ١٢٣.

٣٣/الأشمونى ، على بن محمد (بدون تاريخ) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ج١ مكتبة الإيمان القاهرة ٣١-٥٧٦.

٣٤/ابن يعيش ، أبو البقاء موفق الدين يعيش بن على (٢٠٠١) شرح المفصل ج١ دار الكتب العلمية بيروت ٧٢.

٣٥/انظر: ناصف، على النجدى (بدون تاريخ) من قضايا النحو واللغة مكتبة نهضة مصر القاهؤة ١٦-١٥٩.

٣٦/انظر: الإعراب والبناء للدكتور جميل (سابق) ٢٠-٢٥٥.

٣٧/السابق ٢١-٢٥٥.

٣٨/من قضايا اللغة والنحو على النجدى (سابق) ١٧-١٥٩.